مستقبل التنوير في بلدان الربيع العربي: سوريا نموذجا

د. عبد الرزاق عيد*

تحتل موضوعة التنوير موقعا خاصا في فهم سيرورة حركات الاحتجاج الثورية في بلدان الربيع العربي، فالبلدان العربية ليست متساوية من حيث مراكمتها للتراث التنويري، حيث (مصر وتونس وسوريا) تتمتع بميراث تنويري متميز ليس عن بلدي الربيع العربي الآخرين (ليبيا –اليمن) فحسب، بل وعلى المستوى العربي عموماً. لكن المفارقة أن التطور السلمي للحراك الثوري في مصر وتونس، ومن ثم نجاح الحركتين الشعبيتين في مصر وتونس في إرغام رئيسيهما على التنحّي والاستقالة، عبر استقلالية واضحة للجيش عن السلطة السياسية، أهلته للانحياز الوطني إلى جانب الشعب، في حين أن سوريا المشابهة لهما ثقافيا، مدنيا، وتنويريا، أظهرت (سلطتها الأسدية) وحشية أكثر من النظام الليبي (القذافي) الذي لا يتوفر على مخزون تنويري كما هو الأمر في سوريا، وكذلك اليمن الذي يفترض أنه الأقرب إلى البنية القبلية الليبية، قبل بالتسوية السياسية السلمية دون (خيار القذافي – أو الأسد).

وهذا ما سيطرح على الباحث رصد الخصوصية السورية في هذا السياق، لتفسير سؤال: لماذا نحت باتجاه نموذج القذافي، ولو بهمجية أشرس، وأكثر وحشية، جعلتها نموذج وحدِهِ في الاستهداف المقصود المتعمد والممنهج للقصف المفعم بالأورغاسم الشهوي الغريزي الشاذ إنسانيا، حيث نقلت لنا أفلام (اليوتيوب) دبابات تقصف عمارات دون أن يكون في مواجهتها أحد، وتعبر عن انتشائها

* باحث وناشط سياسي سوري

وانتعاظها الالتذاذي. وهؤلاء الشباب الذين يقصفون العمارات بالدبابات يتبارون في شبقهم التدميري حول عدد الطوابق التي تتكون منها العمارة المقصوفة: (أربعة أم خمسة طوابق)، وهذا الانتشاء كان تعبيرا صارخا عن الذات الغريزية الانتقامية الثأرية الموغلة في اندساسها باللاشعور الجمعي المهووس بالكره التاريخي للآخر، حيث الكراهية هنا تتحول إلى هوية تتعرف بها الذات على أناها ، من خلال تعريف ذاتها وتمييزها كهوية عبر توحدها حول كراهية هذا الآخر (في الوطن ذاته) الذي شكل الحماية الطبيعية للهوية الوطنية عبرالتاريخ.. ومن هنا تبدو الرغبة الانتقامية باستئصال شأفة الآخر، وذلك بإشاعة هذه الظاهرة المميزة بوحشيتها عن مثيلاتها الديكتاتوريات.. وهي ظاهرة قتل الأطفال، واستخدامهم دروعا بشرية ، أي أن الخيار الأسدي دفع بسوريا أن تكون بعيدة عن سيرورة مثيلاتها في التاريخ التنويري العربي: في النموذجين: (المصري والتونسي).. بل وتجاوز الخيار القذافي.

إنه عالم من الغرابة والشذوذ، حيث تنتج نوعا من الوحشية التي تتجاوز كل أشكال الفانتازيا..... وفي هذا الجحيم الذي لم تستطع مخيلة دانتي أو أبو العلاء المعري أن تنتجه فانتازيا، أي علينا أن نبحث عن آفاق التنوير وممكنات النور وسط ظلمات هذا الجحيم.

إطلالة تاريخية على دلالة مفهوم التنوير وسياقاته:

لقد كتبنا في مقدمة كتابنا (أزمة التنوير: شرعنة الفوات الحضاري – مركز الانماء الحضاري (القاهرة –دمشق) –الطبعة الثانية ٢٠٠٥) عرضا للموضوعات التي تناولناها كتمهيد نظري تاريخي، لولوج موضوعنا عن (أزمة التنوير) منذ خمسة عشرعاما في الطبعة الأولى للكتاب، التي كان لا بد منها لكي نتلمس أفاق مستقبل التنويرعربيا، ليمكن تناوله في نموذجه الخصوصي السوري، المعاصر النكوصي عن روح وحلم التنوير، الذي شغل المثقف النهضوي التنويري منذ القرن التاسع عشر، حيث حلم فرح انطون منذ عام ١٩٠٣، وذلك عندما نشر كتابه عن "ابن رشد".

كما قاربنا بحثيا القراءات التراثية الجديدة، وتحديات الواقع الراهن، تـناولنا فيه شروط ولادة القراءات الجديدة للتراث، بوصفها ثمرة تحدي الجديد الذي يطرحه الغرب (استعماراً وحضارة) على الفكر العربي بل على الكيان العربي ذاته، حيث نجد كيف أن فكر النهضة العربية تفاعل مع التراث، ليس بوصفه الإشكالية المركزية للفكر العربي، كما يظهر خلال العقود الثلاثة الماضية، في الخطاب العربي المعاصر الذي قام المرحوم الدكتور محمد عابد الجابري بإطلالته الشهيرة والمميزة عليه في كتابه "الخطاب العربي المعاصر"، فالتراث في عصر النهضة (التنويري) كان إحدى الإشكالات

التي من خلالها، كان الخطاب النهضوي التنويري بتعـدد تياراته (الشيخ والتقني والليبرالي) يتأطر حول الشرعية الدستورية القانونية المدنية باعتبارها لا تتناقض مع الشرع، فأنتج ضرباً من المصالحة بين علم الأوائل وعلوم الإفرنج والعجم، بين النقل والعقل، وفي عصر التنوير العربي الحديث: إنتاج المثاقفة بين العقل العربي والعقل الغربي، بين التراث والمعاصرة، بين الإيمان والعلم، بين الوحي والواقع. وبذلك كان عصر النهضة (التنويري) في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، يتكيف بموروثه الديني والتراثي مع متطلبات ومهام وتحديات عصرهم، مانحين النهاجية الغربية التي تأثروا بها بعداً جوانياً، عندما أصّلوها في العمق التراثي، حيث روح التنوير كانت تسكن مفاصل الكتابة التنويرية، من خلال حل مجموع الثنائيات المتصارعة، لصالح (العقل –التقدم – الحرية).. وسيمثلها الكواكبي في سوريا في أواخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، وسنجد امتداداتها مع المتنور الحمصي (عبد الحميد الزهراوي)، ولذا ليس صدفة أن الإثنين لقيا حتفهما قتلا، على يد السلطنة العثمانية ذات الطربوش العثماني الفارغ.

وقد كانت المناهج المدرسية والجامعية السورية تسكت عن المحتوى التنويري لمشروع الكواكبي، ولاحقا الزهراوي مع مجموع مثقفي شهداء ٦ أيار ١٩١٦ الذين أعدمهم جمال باشا السفاح بوصفهم عملاء للغرب كالعادة المألوفة لدى الديكتاتوريات الشرق أوسطية، حيث الشموليات الظلامية دائما تتهم الفكر التنويري بأنه مستورد وعميل...

وهذه النزعة لا تزال لها مؤيدوها ومريدوها في الثقافة العربية، وذلك لدى كل الشموليات السلفية (قومية أم إسلامية أم شيوعية ستالينية)...بل إن هذه الآلية تبلغ حدا من (الهلوسة)، أن يتهم الحاكم المستبد العسكري الأمني الطائفي شعبه كله بالخيانة والعمالة؛ وتفرده وبطانته (العصبوية) بالوطنية، والقومية، ورفض الغرب بوصفه استعمارا، ولدى الاسلام السياسي بوصفه (صليبيا) ولدى اليسار بوصفه (امبرياليا). فإذا كان تكفير وتخوين (التنوير) يوجه إلى نخب فكرية في زمن الانكشارية العثمانية، فانه في زمن الانكشارية الحديثة، يتم بتخوين الشعب كله كمنفذ للمؤامرات "الكونية"...

والغريب أن التيار القومي واليساري بهوسه الشعاري بمعنى (السيادة الوطنية) التي لم يقدم لها أي تعريف خاص بمنظورهم، سوى الموروث التحرري (الأنتي كولونيالي القديم) المتكون في سياقات مواجهة الاستعمار الكولونيالي، أي ثنائية (داخل وطني /خارج استعماري) دون تكوين مفهوم عن الوطنية (التنويرية/المواطنة) المتكوّرعلى الذات، حيث الفعل المنطلق منها يعود فاعلا فيها، متمثلا بدولة المواطنة التي تتأسس على الشرعية الدستورية ومباديء حقوق الإنسان، وهو التيار السوري الذي سمى نفسه بمعارضة الداخل ممثلا بـ(هيئة التنسيق). فلقد أدانوا التظاهرة (النصف

مليونية) في حماة، عندما عبرت عن ترحيبها بالسفير الفرنسي والأمريكي، وهي تحمل الزهور وأغصان الزيتون تعبيرا عن سلمية ثورتها أمام شاهدين ممثلين لدولتين عظميين، وكان حضورهما من الناحية العملية والمردودية الإجرائية التي يتحسسها المتظاهرون الشباب المترعون حبا بثقافة الحرية والكرامة ، وذلك بالتضاد مع (النظريات الرمادية للايديولوجيات (القومية واليساروية والإسلاموية) التي غلفها الغبار في تلافيف أدمغة قادة معارضتهم المصابة بتصلب الشرايين!

وعلى هذا كانت قراءتنا في فكر التنوير العربي من منظور القراءات الراهنة للتراث، تنطلق من أنه كان ثمرة التحدي الذي طرحته هزيمة ٥ حزيران على العقل والوجود العربي، مما أدى بهذه القراءات إلى أن تنحو باتجاه مغاير للقراءات النهضوية التنويرية التي كانت تنتج قراءات متصالحة ومعاصرة لعصرها، لتبرهن أن الإسلام في روحه لا يتناقض مع الحداثة والتقدم الأوربي والعالمي، بينما القراءات المعاصرة كانت خاضعة لتأثيرات الصدمة الحزيرانية التي راحت تنتج تكيفاتها مع شروط هذه الهزيمة عبر المزيد من الانكفاء والردة عن القيم العقلانية التنويرية للفكر النهضوي، حيث راحت القراءات الجديدة تتكيف مع الزمن الهابط، زمن الهزيمة، من خلال التكيف مع توسع سلطان السلفية، التي وجدت في الهزيمة الحزيرانية، هزيمة للفكر التقدمي العربي التنويري: بشقيه القومي واليساري (ناصري- بعثي –شيوعي)...فكان شعار (الإسلام هو الحل)، الذي سيهيمن على فضاءات العقل العربي. كان على الخطاب القومي اليساري أن ينافس شعار (الإسلام هو الحل) بمزيد من التكيف مع الخطاب الإسلامي التقليدي السياسي (الأخواني) الذي قطع مع مؤسسه حسن البنا العلاقة التنويرية: (ليبرالية حداثية أو إصلاحية إسلامية): أي حركة التنوير الليبرالية الحداثية (أحمد لطفي السيد – طه حسين)، والتنويرية الإسلامية الإصلاحية (محمد عبده – علي عبد الرازق)...لكن عبد الله العروي، يذهب إلى أنه إذا كان التنويريون تميزوا بالجرأة الفكرية، لكن هذه الجرأة اختفت تحت الاحتلال.. ولهذا كانوا عرضة للنقد والملاحقة، إذ قد حدثت عملية الملاحقة الفكرية للإمام محمد عبده، والشيخ عبد العزيز الثعالبي، والطاهر حداد في تونس، ومن ثم طه حسين، وعلي عبد الرازق في مصر)، وذلك حسب العروي: (الحبيب الجانحاني – مرجعيات النهضة العربية والدولة المدنية (موقع سؤال التنوير -٢٠١٢/١٠/٢)

وبذلك فإن الخطاب التراثي المُحْدَث انكبّ يصفي الحساب مع كل قيم التنوير التي أنتجها الزمن النهضوي التنويري، من خلال تجريمه، وتأثيمه، وتخوينه للزمن الليبرالي التحديثي العربي بوصفه زمنا استعماريا، زمن التشوه الذاتي والغزو الثقافي، واتهامه بالتغرب والاستلاب، كونه لم ينتج وعياً مطابقاً بزمنه وإشكالاته الخاصة، بل طرح إشكالات غريبة عن واقع المجتمع العربي، حيث الهجانة، والإصلاحية، والقصور. وبلغ الأمر حد تخوين الإمام محمد عبده واتهامه بوطنيته، حيث ينعى

عبدالله العروي على حركة التنوير نقصانها "الدقة والتثبت "، بل وإنها تكتفي في غالب الأحيان " بتلخيص مقالات ميسرة، ونشركتب شعبية مبسطة...تهتم بالجوانب التافهة في الحضارة الغربية، وتهمل أخرى ثابتة " حسب العروي:(المرجع السابق –الجانحاني).

العقلانية وإنتاج الوعي المطابق في الفكر العربي:

كان عبد الله العروي المفكر المغربي المجتهد الأول في نقد التنوير العربي الذي عرف في الزمن النهضوي الأول لنهايات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ومن ثم تأثيم القراءة النهضوية وإنكار أهمية دورها التنويري، أي عجز مصفوفة الترسيمة الثلاثية الشهيرة (الشيخ والتقني والليبرالي) عن إحداث التغيير المنشود، حيث بالنسبة إليه: " لو نجح إصلاح النهضة لما تم الاحتلال الأجنبي للبلدان العربية":(الجانحاني –المصدر السابق).

ولهذا (ردا على أطروحة العروي التي كنا مختلفين معها في الأصل كافتراض نظري)، قمنا بمقارنة فكرية نظرية بين انتاج طه حسين في ميادين التراثيات، والقراءة المعاصرة التي قدمها محمد عابد الجابري المعاصر لنا، وبوصف طه حسين ممثل أوائل العصر الحديث (القرن العشرين)، مظهرين عبر التحليل، كيف كانت عقلانية النهضوي (طه حسين) عقلانية تاريخية تنويرية، تراهن على ميثاق الأنوار وانبثاقاته الطبيعية الجوانية النيرة، التي تبدد ظلمات الأوهام. أوهام المتوارث والمتعارف عليه اصطناعا وعرفا وتقليدا، حيث أنتجت نهاجية طه حسين وعيها المطابق لزمنها وإشكالياته الحداثية المزامنة لعصره. وكانت في نهاجيتها أكثر إجرائية ومردودية معرفية في انتاج وعي مناسب لحاجات الواقع العربي للتطور فالتقدم.

أي أن ترسيمة طه حسين المنهجية كانت أكثر تقدما إجرائيا وفعالية تنويرية، من النهاجية العقلانية السكونية البنيوية لنهاجية الجابري، التي أنتجت وعياً مفوّتاً بحاجات الواقع عندما حولت التراث إلى أب(بطركي) نستشيره بكل خطواتنا نحو المستقبل، بل وساهمت –باسم الخصوصية والبنيوية- النسقية بتعزيز وتكريس انقسامات العقل العربي إلى أنساق مغلقة، تضفي المشروعية على واقع التأخر، وتعيد تذريره من مستوى (وعي الأمة)، إلى مستوى (وعي الملة) حيث ترسيم الأطروحة الاستشراقية عن وجود إسلامين (شيعي وسني) سيما بعد الثورة الإيرانية (الخمينية) وطموحها لاستخدام المذهب الشيعي، استخداما ذرائعيا قوميا فارسيا وصفويا.

وهي الصيغة الأكثر حضورا اليوم أمام مستقبل التنوير السوري في ظروف الربيع العربي الذي يتحول في سوريا إلى شتاء قاس قارس جدا، تملؤه الأعاصير ويعصف به زمهرير الأهواء العصبوية والمذهبية ما قبل مجتمع الدولة والأمة.

من خلال إطباق قوى التسلط على المجتمع المدني، التي تتحكم فيها غرائزية محدثة، لم يبق أمام التنوير إلا دهاليز ظلمات نفس ملتاثة بالبدائية والسحر الطقوسي الداخلي الباطني العرفاني (الغنوصي) السحري الخرافي (الميثي)، الغارق بالدم وهمجية القتل والإغتصاب، وهي تتوهم الحداثة والعصرية ومشروعية قتل الآخر بوصفه رجعيا سلفيا إرهابيا!!

لنخلص بعد ذلك إلى أن مأزقية مشروع التنوير العربي التي تمثلت في صيغة (إعادة انتاج حداثة التأخر) باسم الخصوصية وبعث ثقافة الهوية بمعناها التقليدي الانكشاري المملوكي ما قبل الدولة الحديثة، لا يتجاوز مفهوم التغاير مع الآخر الأجنبي القابع دائما (هناك في الخارج)، وليس التغاير مع الآخر الظلامي الاستبدادي الرعاعي، الطائفي العسكري العائلي القابع دائما(هنا في الداخل)، كما بلورها الربيع العربي، وخاصة في سوريا التي يتوحد فيها الاستبداد والديكتاتورية العسكرية والمخابراتية، مع الطغيان الطائفي والعائلي (الأسدي) مما ليس له نظائر وأشباه ومثالات في عالم الاستبداد الاستثنائي العربي، العربي.

وتلك هي إحدى المميزات الفانتازية المرعبة لخصوصية الطغيان الأسدي الذي كان لا بد أن يترك آثاره على المضاد التنويري المفترض المعارض، الذي سيفرض عليه ضرورة ازدواج تعايش: (سلاح العقل، بعقل السلاح) في مواجهة قوى استثنائية في التاريخ البشري بدرجة تعويلها على ردود فعل هيجانات الغريزة بل وما قبل الغريزة، حيث القتل المتعمد الذي يلتذ بالذبح، وتحطيم وتهشيم الرؤوس بالبلطات، مما يدعو الى العودة إلى الأبحاث الإناسية والانثربولوجية لدراسة سيكولوجية القبائل الهمجية.

مأزق التنوير/ حداثة التأخر:

خلال هذه الصيغة ستتراءى أمام ناظرينا درجة الانغماد الفكري، والنكوص الثقافي في حياتنا الفكرية الثقافية المعاصرة عن كل منجزات التنوير التي حققها الفكر العربي حتى منتصف القرن التاسع عشر، وذلك إذا ما قمنا بجولة عامة في نصوص الخطاب العربي المعاصر، الذي يبدو (إلا قليلاً) أنه كفر بمبدأ التقدم، وبكونية العقل، وتاريخية الوعي، عبر البحث عن أنساق حضارية لا تتصارع فحسب، بل تتحارب، من خلال انغلاق كل نسق على سيرورة تطوره الخصوصي. هذه الخصوصية، ستغدو أداة مفهومية لشرعنة الفوات الحضاري، أي القبول بمنتهى العقل أو الأدق اللاعقل، بأن خصوصيتنا تكمن في تأخرنا، في عطالتنا الثقافية التي تحمينا من اجتياح الآخر الغرب..في زمن تحكمه (حرب الحضارات)، وفق أطروحات ما بعد الحداثة لهينتنغتون وفوكو ياما..لتجديد مقولة

كيبلنغ حول "الشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقيا".

وعلى هذا سيبدو الربيع العربي، والسوري بخاصة كلحظة مضادة،بمثابتها مفاجأة تاريخية لكل ما راكمه العرب في العقود الأربعة الأخيرة، من نكوص عن التنوير، وانكفاء على الماضي التراثي:(الديني/ أي ما سمي باليقظة الإسلامية/الإسلام السياسي)، أو ما سمي بالخصوصية القومية التي انتهى إليها الفكر القومي (الناصري والبعثي) الذي تغدو محصلته (خصوصيةالاستبداد) في النموذج (الأسدي، الصدّامي، القذافي، ونسبيا الجزائري واليمني).

وهذان النسقان هما الأشد ترابطاً وتحالفاً ضد الربيع العربي، والأشد عدوانية وشراسة ضد الربيع التنويري السوري بسبب العناصر البنيوية المشتركة بينها وبين نظام عصابات الفساد والشمولية الأسدية.

في إطار تلمس آفاق التنوير في نموذج الربيع السوري، كان لا بد لنا من الإطلالة على مشهد البحث في مسائل الفكر الديني وأرستقراطية الحداثة بهدف المقارنة واستجلاء صورة الثورة السورية اليوم ومعنى تحولاتها من إيقاعها المدني السلمي المخملي الرفيع خلال الستة الشهور الأولى، إلى استدراجها لحمل السلاح دفاعا عن الذات بعد سقوط حوالي ستة آلاف شهيد لم يُرم فيها حجر من قبل المتظاهرين، وذلك باعتراف الأسد نفسه. ولهذا كنا قد أطللنا على الخطاب العربي المعاصر المنصبّ على المسائل الراهنة، التي تتجلّى فيها مشكلات الفكر الديني، في صيغته النظرية، وممارساته السياسية، وشكل حواره مع الحداثة، فقمنا بمراجعة بحثين لنا في كتابنا (أزمة التنوير – سبق ذكره)، ومن ثم استخلاص النتائج الضرورية لبحثنا الراهن، وهما بحثان يتناولان أشكال تحقق الحداثة في السياق الثقافي العربي (السوري) من خلال نموذجين لفكر الحداثة السورية: الأول، (سلمان رشدي في المنظور العربي) للدكتور صادق جلال العظم، والبحث الثاني، للأستاذ أنطون مقدسي، الحداثة "عقدة الأفاعي".

الأول: بين سلمان رشدي وصادق جلال العظم، تناولنا فيه كتاب (العظم) "ذهنية التحريم" سيما الجزء الأكبر منه حول "آيات شيطانية" لسلمان رشدي، الذي ينتج من خلاله العظم خطاباً تقريظياً للرواية، لا يقلّ حماسة، عن التأثيم السلفي لها، ووجدنا أن وظيفة نقد الفكر الديني فيه، ينال من الدين الشعبي، ومِخْيالِه الاجتماعي، وضميره الثقافي الوطني، أكثر مما ينال من الدين الرسمي (الأوتوقراطي) أو الدين المؤسسي (الثيوقراطي)، مما بدا وكأنه اعتداء على حقوق الإنسان في حرية اختياره لعقائده وطقوسه.

إن نقدنا لخطاب الصديق صادق جلال العظم حينها، أتت تجربة الربيع العربي في سوريا، لتبرهن

على صواب قراءتنا وخيارنا لما سميناه حينها بالإسلام الوطني الشعبي، في مواجهة الفكرانية الأرستقراطية التي تنظر للدين كمؤسسة رجعية، فأتت ثورة الشباب كثورة للحرية والكرامة تستمد مرجعيتها من فكر مدني (تنويري) كوني يتأسس على منظومة (إعلان حقوق الإنسان)، أي تتخطى الإيديولوجيات إن كانت دينية أم علمانية، يمينية أم يسارية، إنها ثورة الربيع (ما بعد العواصف)، أي ما بعد (الثورة السلمية التي هي تعريفا، ما بعد ثوروية الايديولوجيات).

نعم إنها تملك ذات النسغ العالمي السلمي الديموقراطي للثورات البنفسجية في أوربا الشرقية، لكن الفرق هنا ليس في نوعية الثائرين الشباب المتشبعين بقيم التنوير (كونية الحرية والكرامة)عربا كانوا أم أكرادا أم سريانا سوريين على المستوى السوري، بل بدرجة صلابة نواة التحجر الاستبدادي للأنظمة الطغيانية، بين أنظمة النظام الأوروبي (حتى الشرقي) والنظام العربي، حيث الخسائر البشرية لثورات الربيع الأوروبي تكاد أن تخلو من المجازر حتى وإن كانت لم تخلُ من الضحايا، حيث يكاد أن يكون عدد الضحايا مقياسا لدرجة التمدن السياسي المجتمعي والدولتي لأوربا الشرقية من جهة وبين الربيع العربي المشابه في سلميته شعبيا من جهة أخرى، والأمر نفسه، يمكن أن ينطبق على امثلة الربيع العربي بالقياس للنموذج السوري، حيث كان يفترض أن يكون النموذج السوري على مستوى تمثيل المجتمع المدني ومنجزاته الحداثية ثقافيا واجتماعيا هو الأقرب للنموذج التونسي والمصري من النموذج الليبي.

لكن رد النظام (الأسدي) يكشف أنه كان يتخطى في همجيته رد (القذافي)، وهذا ما يفسر المفارقة البدائية الغريزية المتوحشة للنظام الأسدي في كونه متخلفا عن منسوب مجتمعه المدني، ويظهر مدى الصعوبات والعقبات التي واجهت قوى التنوير الديموقراطي السلمي الحداثي في سوريا الذي وجد نفسه بعد ستة أشهر من القتل بمواجهة صدوره العارية، أن لابد له من الدفاع عن الذات عبر اللجوء إلى السلاح. وعندما يحضر عالم السلاح -بطبيعة الحال- سينحسر الفضاء المدني والتنويري لصالح العنف والعنف المضاد، في لحظة انكشاف للخداع والحيادية الأوروبية والغربية أمام عيون الشباب السوري الذي استشعر أنه خذل وهو يصنع أرقى ثورة مدنية تنويرية يفترض أن يرحب بها كل دعاة (العالم الحر)، بل ومخملية خلال ستة شهور فقدت ستة آلاف شهيد كانوا يواجهون (المخرز بالعين).

وهذا يعني أن تجارب التنوير التي كانت تراهن على نقد جذري (العظم) ونقد نخبوي حداثي (مقدسي) للدين ذاته عبر النيل من مقدساته وتفكيكها، لم يجد صداه في الحراك المدني التنويري لحركات الشباب: في الربيع العربي والسوري، وأن مراهنتنا على نقد (الفكر الديني المنتج بشريا وليس نقد الدين ذاته المنتج غيبيا)، كما كان حوارنا مع الصديق د.صادق جلال العظم ولاحقا

مقدسي، قد برهنت صحة مراهنتنا هذه، على ما سميناه (الدين الوطني الشعبي) وكشفت عن اجرائيتها وفعاليتها ومطابقتها لوعي الشباب المدني (التنويري) من خلال لقاء الجميع في (ساحات الجوامع) دون عقد وتشنج مذهبي أو ديني، والتي شكلت ساحات الانطلاق للتظاهرات، دون أن يعني ذلك أن التظاهرات إسلامية بالمعني السياسي (إسلاموية)، بل هي مظاهرات وطنية مدنية (تنويرية:الحرية والكرامة)، لم تشكل لعلمانييها ويساريها ولطوائفها من المذاهب الأخرى عوائق ايديولوجية (فكرانية نخبوية – أدونيس) ضد رمزية الجامع..بل ولدينا معطياتنا الشخصية أن ابناء أصدقاء من طوائف مسيحية، ومذهبيات إسلامية (دروز – اسماعيليين- علويين – يزيديين) أخرى كانت تخرج من الجامع دون اهتمام بالعوائق النفسية وعقد الرهاب (الفوبيا الإسلاموية)، وذلك نأيا بالنفس عن سياجات العزلة الايديولوجية التقليدية المفوّتة لآبائهم وأجدادهم الذين حولوا الحداثة من فضاء عقلي إلى سياج دوغمائي على حد صياغات الراحل (محمد أركون).

أما النموذج الآخر للتنوير الفكراني: انطون مقدسي، فهو مع أدونيس الأكثر تداولا تبشيريا بالحداثة بشكل نخبوي مباشر متطرف بوصفها إيديولوجيا وليست فضاء معرفيا، وإن كانت تنحى عند أدونيس منحى الحداثة الشعرية رغم تكشفها لنا فكريا عن مضمر باطني طائفي، عندما ترى في الحداثة فعلا أقليا (شيعيا) منشقا ابداعيا على وعي الأكثرية التقليدية المحافظة (الأكثرية –السنة) بمثابتها ممثلا لـ" الثابت "، بالضد من الأقلية (الشيعية) كممثلة لـ"المتحرك"، وقد أشبعت كتابات أدونيس بحثا ونقدا في الكشف عن الجذور الطائفية لـ(تنويره) الحداثي...لا يمكن أن يكون هناك ثمة تنوير –حسب عصر التنوير- إذا لم ينبعث النور من الداخل...فهل يمكن أن يكون هناك ثمة تنوير في تجربة أدونيس المنطوية على (باطنية – طائفية) تعتقد – طائفيا- بأنها تحتكر التنوير والتحرير والحداثة (المتحوّل).

ولهذا فقد كان تأثيره بجيل من هواة الشعر المشغولين بهموم شكلانية بحتة، لكنه لا يمكن على مستوى الفعل التنويري الاجتماعي إلا أن يكون زركشة على سطح جسد اجتماعي تالف (ثابت)... ولن يظهر من الحداثة الأدونيسية في بيئتها الثقافية –الإجتماعية الطائفية (المتحركة) إلا شكل تحرر جسدي غرائزي، لا يستند إلى ثقافة التنوير، بل يستند إلى موروث حسي إباحي بدائي أقرب إلى روح المشاعية، منه إلى روح المنظومات المدنية والحداثة العصرية والتنويرية التي اعتبرها فرويد تمثيلا لتاريخ الكبت، بوصف الكبت الثمن الضروري للمدنية والتنظيم الاجتماعي الحديث، وذلك لانتقال البشرية من المرحلة الغريزية الحسية إلى المرحلة المدنية العقلانية، حيث المزيد من الحضارة يعني (مزيدا من الكبت) على طريق تطويع وتدريب الغرائز باتجاه مجتمع العقل الضابط والمحاصر لـ(الهو)، (هو) اندفاعات عالم النشوة الغريزة واندياحاتها التلقائية الطبيعية، فذلك ثمن

لا بد منه للحضارة ومكبوتاتها –حسب فرويد- على طريق تحرير الغرائز حضاريا وعقليا. وهذا مما يصعب أن تستوعبه الانفلاتات الحسية لغريزة ابن الطبيعة البدائية الحسية، للشعرية الأقرب للطبيعة الفجة الأولى، المستولية على الهواجس الشعرية، والانفعالية الميثية الباطنية، التي تحكم (التنويرية الطائفية) لأدونيس.

أنطون مقدسي الداعية التبشيري فكريا ونظريا (ايديولوجيا) للحداثة (التنويرية) بالتوازي مع أدونيس داعية الشعرية الحداثية المشبعة بالفطرية الغريزية الباطنية الممتلئة بالحدوس، وإشراقات واسراءات وعروج النفس، في غياهب الحلم والرؤيا السحرية، للإمساك بالنور السحري (الميثي)، ولا تملك الوعي التاريخي للتنوير العقلاني المدني الديموقراطي !

أنطون هو الداعية فكريا، ونظريا، ترجمة وتأليفاً، ودعوة، في الثقافة السورية من موقع المثاقفة مع الغرب إلى الحداثة والتنوير. لكن حَدْثَنَتَهُ التنويرية، لم تُنتج سوى زركشة على جسد بُنى مفوّته، مهترئة لأنها لم تنتج وعياً مطابقاً بزمنها التاريخي، مثله في ذلك مثل نموذجه للحداثة الشعرية أدونيس، ولذا فقد انتهى مقدسي "الذي بدأ كمثقف قومي عربي يؤمن بالوحدة والحرية والاشتراكية إلى لاءات الحداثة التي تؤمن بكل شيء على قاعدة انهياراته، أي من نضالية رومانتيكية واثقة من فعاليتها الذاتية إلى برزخ سديمي، حيث لا ذات ولا موضوع، ولا مادية ولا مثالية، وحيث القلق والخوف وإرادة كلية القدرة يصنعها الغرب الذي هو خطة واختصاص مُغفَل " على حد تعبيره: (الحداثة: "عقدة الأفاعي"قراءة في النموذج السوري للحداثة (أنطون مقدسي)، وذلك في (كتابنا: أزمة التنوير "شرعنة الفوات الحضاري") – مصدر سبق ذكره.

وعلى هذا شكلت تجربة التنوير الحداثية (الفكرانية) حالة" ثقافوية" نخبوية انعزالية متعالية ومتأففة في تعاليها على وعي (العامة /العوام)، بوصفها رجعية (دهماوية). وهي تتقاطع في نقطة واحدة رغم وهم التعارض الايديولوجي الشكلي، مع الخطاب القومي (الناصري والبعثي والشيوعي) في التعامل مع (مستقبِل الخطاب)، أي مع (المتلقي) بوصفه جمهورا (الجماهير الشعبية) الغفيرة التي تقاد من قبل (راعيها: الزعيم التاريخي -والقائد الأوحد- القائد الضرورة –الأب القائد...الخ) كالقطعان.

بل بدأ هذا المصطلح الذي يؤكد (رعاعية الرعية) ينتقل إلى المجالات الثقافية: الفنية والأدبية: (معبود- ومعبودة الجماهير...)، بل إن الخطاب الإسلامي لا يزال حتى اليوم يتعامل مع الشعب، ليس بوصفه مصدر السلطات، بل بوصفه "رعية". والقومي ينظر إليه (لبنة وحدوية) في جدار الوحدة العربية التي لا تعترف بالهوية السورية. واليساري الذي ينظر إلى الفرد بوصفه (لبنة في

جدار مواجهة المشروع الامبريالي العالمي... بل وحتى الليبرالية العربية التي يفترض أنها تنطلق من فلسفة الفرد، بوصفه النواة الأولى لمقاربة أية حالة اجتماعية أم مجتمعية، كان قد تم طمرها تحت ركام الايديولوجيات الشمولية (قومية -يسارية -إسلامية -أو نخبوية فكرانية حداثية ثقافوية)، فقد سيطر عليه الشعور بأنه دودة أو عبد مخصي، مقابل ديكية الآخر وفحولته التي برهن عليها الغرب من خلال (فتونته الديكية) الإسرائيلية في حزيران، بهزيمة العرب سنة ١٩٦٧.

ولهذا ليس هناك في الفكر العربي سوى منظومة ياسين الحافظ، الداعية إلى ضرورة المدخل (التنويري الليبرالي)، كتمهيد تاريخي ضروري لكافة تيارات الفكر العربي، هي المنظومة الوحيدة المتبقية لنا من تاريخ الأفكار السياسية السورية محافظا على حيويته وراهنيته بالتوازي مع عبد الله العروي المغربي، الذي كان- بدوره- الداعية الأول لأطروحة ضروروة التمهيد الليبرالي التنويري للمرحلة الوطنية واليسارية لاحقا. رغم أن العروي عاد وشكك بفاعلية التنوير العربي كونه لم يحل دون المرحلة الاستعمارية، ثم عاد مراجعا لأطروحته هذه، فلقد ظل موقفه مضطربا من هذه الإشكالية!

بينما ظل الحافظ أمينا لمسألة (التنوير الليبرالي) وإن لم يتمكن من التحول في حياته وزمنه، ولا عبر حزبه الذي خلفه في عدد من البلدان العربية، أن تتحول (مصفوفته النظرية التنويرية هذه) إلى فكر اجتماعي أو تيار سياسي اجتماعي عريض، إذ ظل أسير وعي النخبة المثقفة. ولعل نفوذ فكرالحافظ الأوسع في دولة المغرب وربما الأردن كأنظمة ملكية تسعى للتمسك والاحتفاظ بإطار من الشرعية الملكية الدستورية، يفسر لنا حالة سلاسة التحولات الديموقراطية (دون مخاض الانتفاضات الثورية) بتعدد إيقاعاتها عربيا في هذين البلدين (المغرب والأردن). أي أن الموروث الليبرالي التنويري لم يجد مقاومة عنيفة فكريا وسياسيا وأمنيا – كسوريا بلد الغنائية الثورية ايديولوجيا سلطة ومعارضة- حيث أظهرت التجربة التاريخية العربية أن الملكيات العربية كانت الأقل شراسة في مواجهة التنوير، ربما بسبب موروث مدني تنويري للنخب الملكية الحاكمة في (المغرب والأردن)، بالعكس من أبناء رعاع وحثالات الإنقلابيين أصحاب: (الرطانة الشعارية الجماهيرية: الفلاحية الرعاعية والحثالة المدينية) المتفاصحة هزءا وسخرية وميلودراما باسم الشعب الذي لا يعني بالنسبة لهم (سوى جماهير العامة من الرعية التي ينبغي أن تؤمن: أن لاصوت يعلو فوق صوت الزعيم الأوحد) حيث خلف هذه الصيغة تكمن ثورية كاريزما زعامة (القوميين واليساريين والإسلاميين).

هذا على المستوى الداخلي لمنظور الكتل والشرائح الاجتماعية والتيارات الفكرية والأحزاب السياسية لذاتها ولمجتمعها وسيرورة حركيتها. أما على المستوى الخارجي الدولي والعالمي، فلقد ظل التصور العالمي للستاتيكو -الإقليمي والدولي القائم بعد الحرب العالمية الثانية هو السائد والمهيمن والمعمول به، حيث يفترض أن الشرق الأوسط، وفق هذا الستاتيكو، هو مجموعة دول

-بلا شعوب- تديرها أنظمة ديكتاتورية لا تسمح للشعوب بدخول ساحة التاريخ ليكون لها رأي بمصائرها. فدول الشرق الأوسط، كما تعاملت دولها مع شعوبها بوصفها (رعايا عوام جماهيرية دهماوية)، نظر إليها الغرب الأوربي والأمريكي بذات الرؤية، وفق الترسيمة التي رسمتها أنظمتها عن شعوبها ومصائرها، أي إما:(الأنظمة الديكتاتورية الحاكمة أو الأصولية السلفية الجهادية "القاعدة" على سبيل المثال...أو الفوضى). ولهذا ظل جيل الشباب الذي يمتلك (المشترك التنويري بين كل قوى المجتمع السوري: يسار وقوميين وإسلاميين) بمنأى عن الأطر السياسية التي تشكلت رسميا بالتوافق مع النظام السوري والعربي والدولي (داخليا:هيئة التنسيق – وخارجيا: المجلس الوطني). ولهذا -أيضا- ظل الوعي المدني (التنويري المشترك:إسلامي- قومي -يساري- ليبرالي)، بين تيارات الفكر السياسي السوري، والذي كان هو المكون الرئيسي لقوة الثورة السورية الرئيسية السلمية خلال الشهور الستة الأولى مبعدا عن محاور الفعالية الأساسية.

حيث يتم كل ذلك من خلف ظهر السلطة المنهمكة بالملاحقة السهلة لأحزاب حفظت كل أسماء أعضائها خلال أربعين سنة، ومن خلف ظهر معارضة شبعت قمعا وقهرا ويأسا وانكفاء على الذات ولملمة الجراح، فلم تجد حلولا لبقائها على قيد الحياة كمعارضة، سوى العودة إلى أحضان أخواتها الأصليات المسالمات والجبهويات التي كانت قد انشقت عنها بلحظة حماس أهوج مأسوف عليها..! وذلك منذ ربع قرن..! سوى أن رفاقهم الذين وقفوا مع السلطة وانضموا إلى جبهتها الوطنية التقدمية حينذاك، كانوا هم الأكثر واقعية وعقلانية ونجاحا حياتيا ومعاشيا..! لأنهم على الأقل لم يحبسوا مثل رفاقهم عشرات السنين مجانا، بل كسبوا امتيازات ومكاسب سلطوية ترمز لها ماركة (المارسيدس) التي حظي بها كل من يقبل في أن يكون عضوا في مجلس دمى الشعب(الأسدي) من هذه الأحزاب..!

ولهذا فإن رفاق الأمس يريدون أن يعوضوا عن خساراتهم مع رفاقهم الذين كسبوا كثيرا خلال فترة سجنهم، بأن يكافَئوا بتسليمهم زمام قيادة الثورة للتعويض عما افتقدوه قبلها، بغض النظرعن موقفهم قبل الثورة الداعي لصواب حكمة رؤية رفاقهم القدامى وبعد بصيرتهم في أن النظام كان نظام صمود ومقاومة، ومعاداة للإمبريالية..ولقد كسبوا كثيرا من وراء هذا الوعي الوطني والقومي المبكر والحصيف، كما يظهر اليوم من خلال تحالف "جبهة المقاومة".

لقد بدا للأحزاب المعارضة بعد خروجها محطمة من السجن، أن أشقائها الذين لم يدخلوا السجون لعشرات السنين التي سجنوا هم فيها استفادوا من امتيازات الاعتدال والتعقل، فقد أثبتوا أنهم كانوا أكثر عقلانية ومنطقية في فهم سيرورة التاريخ السوري الذي اتفق الجميع على تسميته بـ"التاريخ الأسدي".

ولهذا فإن حركة التنوير ستلقي من جديد على أكتاف الشباب –جيل ما بعد الإيديولوجيا- مهمات اضافية، بسبب الهيمنة التقليدية للقوى التقليدية (إسلامية أم يسارية أم قومية)، على ساحة السياسة، وذلك بعد أن خذل الغرب الحركة الثورية المدنية (التنويرية الديموقراطية) بعد الشهور الستة الأولى السلمية البحتة للثورة والتي كان من شأنها أن تشكل ثورة مدنية تنويرية سلمية صافية، لو لم يترك العالم الشباب السوري يواجه كل الهمجية الأسدية بصدوره العارية وحده، حيث لم يكن هناك سبيل من اللجوء إلى السلاح للدفاع عن النفس والابن والعرض. وهذا ما يؤخر تحقيق الأهداف من أجل تحقيق التطلعات والطموحات التنويرية المدنية الديموقراطية للثورة، وذلك لما بعد حسم معركة السلاح على الأرض، خاصة في ظل قوى تقليدية بل ومتأخرة (يمينا ويسارا) تسيطر على الحراك السياسي رسميا وإن لم يكن شعبيا، في ظل مرحلة ثورية لا تتيح التمثيل الانتخابي والشرعية الانتخابية، لكنها تضيف عبئا جديدا على ثورة الشباب التنويرية الديموقراطية التي كان متاحا لها أن تكون أرقى ثورة سلمية في زمن الثورة (المعلوماتية)، أي في زمن ما بعد عصر ثورات المرحلة (الصناعية) كالثورة الفرنسية..فقد بدأت الثورة السورية أكثر سلمية من الثورة المصرية والتونسية، لكن الاستثنائي والمفاجيء للمتوقع في سيرورات حدث الثورة السورية -سوريا وعالميا- أن القمع الوحشي البربري المرعب (أسديا) لم يتجاوز الردود على الثورات السلمية المخملية المعلوماتية فحسب، بل وتجاوز الحروب الأهلية لثورات الزمن الصناعي (فرنسية – أمريكية – روسية...الخ).

حيث واجه الشعب السوري وطليعته الشبابية (التنويرية)، نوعاً استثنائياً – سيتحدث عنه التاريخ الإنساني- وهو نوع من السلطة العصبوية الطائفية الرعاعية الوحشية المنفلتة الغرائز- بل وما قبل الغرائز البدائية- متمثلا بممارسات شاذة في التاريخ الانساني، في زمن عجيب من التواطؤ والصمت العالمي، وكأن ثمة دهشة عالمية من هذا الخيال الابتكاري (الغرائبي المعزول استيطانيا عن أهله وشعبه) في القتل الذي يثير الذهول الغرائبي للخيال الاستشراقي...فلا يريده العالم أن ينتهي بسرعة كمسلسل مثير من مسلسلات (فانتازيا الرعب)، التي لا تتاح دائما للمتفرج والمشاهد والمراقب عالميا..!!